رفح الكارثة والصمود

18-5-2004

دمرت قوات الاحتلال دمرت 4813 منزلاً سكنياً في قطاع غزة وحده، يسكنها 36985 فرداً من بينهم 18122 طفلاً، دون احتساب التدمير الذي حدث في توغلي الزيتون ورفح الأخيرين. ويبلغ عدد المنازل المدمرة في رفح وحدها 2100 منزلا، يسكنها 14882 فرداً من بينهم 7769 طفلاً.

بقلم وسام عفيفة

الخيام هي نفس الخيام منذ العام 1948 وحتى العام 2004 ولكنها اليوم في رفح وحي الزيتون أحيت مرارات نكبة اغتصاب فلسطين في الذكرى السنوية، حيث يعيش أهالي رفح اللجوء الثاني بعد أن دمرت أمام أعينهم بيوتهم، فكانت نكبة جديدة لم تتورع آلة الحرب الصهيونية هذه المرة أيضا عن استهداف البشر والحجر، فكانت منطقة الشريط الحدودي والذي يطلق عليه الإسرائيليون اسم محور (فيلادلفي) مسرحاً لمجازر بشعة ارتكبها جيش الاحتلال ضد المواطنين الآمنين ومساكنهم، فاستشهد إثر ذلك 16 شهيدا وأصيب المئات وتم هدم العشرات من المنازل وتشريد المئات من العائلات وسط مقاومة باسلة قادتها التشكيلات العسكرية للفصائل الفلسطينية والتي أوقعت الخسائر في صفوف الصهاينة، وبدلاً من البحث عن أشلاء جنوده عاد بجثث أخرى، أما في حي الزيتون بغزة فقد بدت المناطق المستهدفة وكأنها تعرضت لزلزال غير معالمها بفعل ما ارتكبته قوات الاحتلال من تدمير وخراب انتقاما لمقتل ستة من جنودها التي استهدفتهم المقاومة في تفجير مدرعة في الحي أثناء عملية توغل.

والجديد في الدمار والخراب الذي نشره الاحتلال في رفح أنه لم يتورع عن استهداف أي شيء حتى المساجد طالها الهدم، وقد ارتكبت جرائم دفنت فيها قوات الاحتلال مواطنين تحت أنقاض المنازل بشكل متعمد لتختلط أشلائهم بحجارة منازلهم.
وفي المجزرة المرتكبة اليوم سقط على الأقل 20 شهيدا ولازالت الجريمة متواصلة والصمت العربي والعالمي شريك في الجريمة.
* تحت الأنقاض:
مشاهد الدمار الكبير التي لا يمكن تصورها وتصديقها في بلوك "o" ومخيمي الشعوت ويبنا وحيي البرازيل والسلام لا توصف وقصص ومآسي عديدة حدثت مع الفلسطينيين، فالشهيد "أشرف قشطة" كان يحاول تأمين خروج عائلته من المنزل قبل أن يهدم وبعد أن تمكن من إخراجهم حاول أن يحمل معه بعضاً من ممتلكاته، ولكنه لم يتمكن من الخروج بعد أن قصفت مروحية حربية المنزل بصاروخ وتم هدمه من قبل الجرافات وهو بداخله كما قامت تلك الجرافات بوضع ركام المنزل الذي يجاوره فوق ركام منزله المدمر، وبالرغم من تبليغ الصليب الأحمر بفقدان قشطة إلا أن شراسة الحملة الإجرامية التي يشنها جيش الاحتلال منعت العاملين في المنظمة الدولية من القيام بعملهم وعُرف أنه استشهد بعد الكشف عن وجوده تحت الأنقاض بعد 48 ساعة من استشهاده.
ولم يجد المواطن عصام قشطة 40 عاما، وأفراد أسرته المكونة من سبعة أطفال سوى قطعة قماش بيضاء ليرفعوها أمام الجرافات الإسرائيلية محاولين عبثا إيقاف تقدمها تجاه

منزلهم والسماح لهم بالخروج من المنزل وقد بدا على وجوه المواطنين كل مشاعر الصدمة والألم واخذوا يرون لنا الحكايات المأساوية وكيف مرت تلك اللحظات الصعبة عليهم، حيث قال المواطن "عصام قشطة" :"رفعنا الرايات البيضاء أمام الجرافات كي لا تقترب من منزلنا، وليسمحوا لنا الخروج خشية أن يهدموا منزلنا فوق رؤوسنا ..ولم يرحموا صراخنا ونجدتنا، وكان على مقربة منا ابن عمي أشرف يحاول عابثا إنقاذ ما يمكن إنقاذه من ممتلكات منزله إلا أن جنود الاحتلال والذين اعتلوا العمارات والبنايات الشاهقة أطلقوا النار باتجاهه ومن ثم هدموا منزله فزق رأسه ولم نعثر على جثمانه إلا في اليوم الثاني"..

*على خط المواجهة:

محافظة رفح بحكم موقعها الجغرافي كمدينة حدودية (مع مصر) اكتسبت أهمية خاصة على مر العصور فهي تعتبر البوابة الجنوبية لفلسطين لوقوعها على الحدود الفلسطينية المصرية وكذلك لوجود معبر رفح الحدودي فيها، والذي يعتبر المتنفس الوحيد لمواطني محافظات غزة نحو العالم، ما حدا بقوات الاحتلال للعمل على محاصرتها من الجهات الأربع بالمستوطنات والحدود وتضييق الخناق على سكانها بغرض دفعهم لتركها وخاصة القاطنين على الحدود الفلسطينية – المصرية، ومع اندلاع انتفاضة الأقصى صعدت قوات الاحتلال من عدوانها على المحافظة وخاصة المناطق الواقعة على الحدود المصرية الفلسطينية متذرعة باستخدامها لتهريب الأسلحة عن طريق الأنفاق كما تدعي.

ووفقاً لحصيلة توثيق مركز الميزان لحقوق الإنسان، فإن

قوات الاحتلال دمرت 4813 منزلاً سكنياً في قطاع غزة وحده، يسكنها 36985 فرداً من بينهم 18122 طفلاً، دون احتساب التدمير الذي حدث في توغلي الزيتون ورفح الأخيرين.

ويبلغ عدد المنازل المدمرة في رفح وحدها 2100 منزلا، يسكنها 14882 فرداً من بينهم 7769 طفلاً.

ويذكِّر المركز بحقيقة أن معظم ضحايا هذه الانتهاكات هم من اللاجئين ممن شردوا عام 1948، وبما ينطوي عليه ذلك من دلالات تأخذ أبعاداً إنسانية كارثية، خاصةً في ظل حالة الإفقار والقتل والتدمير المنظم المتواصلة بحق السكان الفلسطينيين.

* مخطط لتدمير نصف رفح:

المحكمة العليا الإسرائيلية أعطت من جانبها الضوء الأخضر لهدم المزيد من منازل المواطنين برفضها التماساً قدم إليها من أصحاب المنازل المهددة بالهدم، كما أن مصادر في مكتب شارون ادعت، أن الأخير صادق للجيش على هذا المخطط، خلال اجتماع عقده مع شاؤول موفاز لكن مشروع توسيع المحور وهدم مئات، وربما آلاف المنازل الفلسطينية في رفح، لم يأت بسبب العملية الفدائية، بل كان أحد الخيارات التي جرى الحديث عنها خلال إعداد خطة "فك الارتباط" التي عرضها شارون، ورفضها حزبه في استفتاء الثاني من أيار.

وكان شارون قد أفصح، في لقاء أجرته معه صحيفة "معاريف" العبرية عشية عيد الفصح العبري، عن وجود مخطط لتوسيع المسار، بل حمل الإسرائيليين عن توقيع اتفاقيات اوسلو، المسؤولية عن الاكتفاء بالعرض الحالي للمسار". واعترف بأن

توسيع المحور سيعني هدم مئات المنازل الفلسطينية، وهي مسألة زعم في حينه انه لا يريدها حاليا، في سبيل الامتناع عن تأليب الرأي العام الدولي ضد خطته. وقال في المقابلة إياها :"إن هدم المنازل، يعني ظهور صور الأطفال الفلسطينيين الباحثين عن دماهم بين أنقاض بيوتهم، على كل شاشات التلفزة ووسائل الإعلام". وقال شارون إنه تم فحص حل لمشكلة أصحاب البيوت التي سيتم هدمها، تقضي بنقلهم للإقامة في بيوت المستوطنات التي سيتم إخلاؤها، وقالت مصادر عسكرية إسرائيلية بعد عملية الشريط الحدودي، إن قوات الاحتلال ستواصل السيطرة على المحور، حتى إذا تم الانسحاب من غزة.

إلى ذلك حذر النائب اليساري الإسرائيلي يوسي سريد (ياحد - ميرتس) من مخطط لهدم نصف مدينة رفح، خلال الأيام القريبة، تحت ستار "توسيع محور فيلادلفي" وبمصادقة من البيت الأبيض الأمريكي.

وقال سريد ان هدم المدينة سيعتبر بمثابة ارتكاب جريمة حرب وسيلحق بالاحتلال الكثير من الاضرار، ولن تنفعها آنذاك، مظلة بوش كما لم تنفعه في قضية التعذيب في العراق.

ويقول زياد الصرفندي رئيس لجنة الطوارئ في رفح أن المواطنين شعروا بأجواء حرب حقيقية وكأن إسرائيل التي تمتلك 200 قنبلة نووية تحارب جيشاً يمتلك أعتى أنواع الأسلحة ، وبرغم أن إرادتنا كانت أقوى سلاح ولكنه من الناحية العسكرية فهم يواجهون حقيقةً الشيوخ والأطفال ، فلقد أطلقوا زخات من الصواريخ والرصاص الذي لم يتوقف، مشيرا إلى أن حجم الدمار والهدم حسب تقديراته الأولية يصل تقريباً

إلى مائة منزل بالإضافة إلى تدمير ما يوجد بها من أثاث وممتلكات وبدأت لجنة فنية تمارس عملها لتقدير حجم الأضرار .

* مخيمات النكبة الجديدة:

وعلى مداخل شوارع رفح وأزقتها انتشرت عشرات الخيام "للاجئين الجدد" من منطقة بلوك (o)، فيما غصت النوادي الرياضية والمدارس والأماكن العامة بعشرات المشردين، حيث عمدت الأطقم التابعة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين "الأونروا" -وعلى عجل- بإقامة مخيم إيواء كبير يضم عشرات الخيام في إحدى المدارس الكبرى بالمدينة، في حين شرعت الجمعيات المحلية والمؤسسات الدولية في تقديم

المساعدات الغذائية لهم في مشاهد أعادت للأذهان صور هجرة عام 1948. وتم إقامة مراكز إيواء للأفراد الذين فقدوا منازلهم مجهزة بمراكز صحية وتم إنشاء أحد هذه المراكز في الملعب البلدي وآخر في مكتبة البلدية ،وبدت كأنها خيام النكبة مجددا.

من جهتها، أعلنت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين "الأونروا"، أن عدد المنازل التي دمرتها قوات الاحتلال في بلوك "o" في رفح خلال الثلاثة أيام الماضية 117 منزلاً ما بين هدم كلي وجزئي. وقالت: إن هذه القوات هدمت 70 منزلاً بشكل كلي، و 25 بشكل جزئي، بالإضافة إلى تضرر 22 منزلاً، مشيرة إلى تشريد 1160 مواطناً.

ويرى الصرفندي أن شارون لن يتوقف عند هذا الحد فسيزيد من مساحة عدوانه كما أن مخططاته تلك تنذر بوقوع مجازر أخرى ، ويعتقد الصرفندي أن تلك المخططات وبالرغم من أنه

من المتوقع حدوث محاولات إسرائيلية أخرى لاجتياح المخيم وهدم المنازل فإنها لن تنجح في وقف عمليات المقاومة على الشريط الحدودي. وأوضح المهندس سعيد زعرب رئيس بلدية رفح أن عمليات الهدم تأتي ضمن خطة مبيتة تنفذ منذ خمس سنوات بحجج أمنية واهية و أضاف أن مسلسل الهدم متواصل و العدوان يزداد بحجج جديدة ، و أضاف أن الوضع الاقتصادي سيئ جدا و الوضع الأمني أسوأ و لا خيار أمام الفلسطينيين سوى الدفاع عن حقهم و أرضهم و أنفسهم. وعن مناشدته للمنظمات الدولية قال زعرب أن المنظمات الحقوقية والدولية لا تملك فيزا المرور عبر حاجز ايرز و لا يطبق هنا أي قانون حول حقوق الإنسان أو حتى حقوق الحيوان فالدولة العبرية و جيشها تعتبر نفسها فوق القانون و الإنسان !!. وأشار رئيس البلدية إلى أن العالم كله و منظمات حقوق الإنسان تتحرك من أجل حيوان تائه أو مريض و كأن الدم الفلسطيني رخيص لذلك لن أوجه نداء لأي جهة أو منظمة دولية والشكوى لغير الله مذلة!.